الفصل السادس عشر
"ليلة سمر"

تسلّل الشعور بالملل والرتابة إلى قلب جنّة؛ ففى خلال تلك الأيام لم يكن يرافقها سوى أبويها وجدران المنزل والسقف، حتى حفظَت شروخهم عن ظهر قلب من فرطِ التّحدِيق بهم، وبينما كانت تشاهد التلفاز نهضَت فجأة وتأفّفَت، تتوق إلى رؤية الشارع واختلاف الليل والنهار؛ فحتى الإطلال من النافذة كان محرمًا عليها، سألتها منال:

- مالك يا بنتي فيه إيه؟

- زهقت.. زهقت يا ماما، هطقّ من الملل، مش قادرَة أستحمِل، حاسّة إنّي في سجن، هموت وأخرج.

- بعد الشر عليكي يا حبيبتي، معلش فترة وهتعدّي إن شاء الله وتخرجي وتعملي كل اللي نفسِك فيه.

- بس يا ما...

استوقفها صوت رنين هاتفها، ليظهر لها على الشاشة اسم أحمد؛ فردت بحنق:

- أيوه يا أحمد؟

- أيوَه يا أحمد؟! آاه يبقَى شكلِك مكتئبة انتِ كمان.

- يعني شوية.. إيه؟ انتَ بتقول انتِ كمان؟ ليه مين تاني مكتئب؟

- المحروس ابن خالتك اللي هو أخويا ومراته.

- إيه اللي حصل يا ابني؟ ما تقول على طول.

- مفيش يا ستّي، سارة بقالها كذا يوم عصبية كده ومش طايقة نفسها، ووشها أصفر كده شكلها تعبانة، ومالِك كان أجازة امبارح، وانتِ عارفة بقى هو وخالتك مابْيبَطّلوش طلبات؛ فكلمة منه على كلمة منها اتخانقوا، خالتِك بقى تسكت؟ لا.. حطّت شوية شطة من عندها، كبِرْ الموضوع والبيه بايِت هنا من امبارح وسايبها في شقتها فوق لوحدها.

- تؤ تؤ تؤ ليه كده بس؟ ومالِك لو يبطّل عصبية الدنيا هتمشي.

- طب بقولِّك إيه.. ماتعرفيش تيجي تهدّي الدنيا بينهم شوية، هما الاتنين بيحبوكي وهيسمعولك.

- من غير ما تقول أصلًا كنت هعمل كده ... أووف! بس هاجي ازّاي؟ انت عارف..

- ماتقلقِيش.. هاجي أنا آخدك، وكمان انتِ مش رايحة بعيد.

- طيب ماشي.. مستنّياك.

قالتها بتردد، ثم أغلقت معه، وتراءَى لها أنه من الأفضل إخبار هشام بالأمر؛ فاتصلت به في انتظار رده.

كان هشام يرصد المنطقة التي تسكن بها جنّة من خلال المنظار، وأمر سعيد بأن يجهز له تسجيلات الكاميرات لليومين السابقين، وفي تلك اللحظة أبصَر جنة في منظاره بداخل غرفتها من خلال النافذة الشفافة، وكان يبدو عليها

القلق تضع الهاتف على أذنها بإلحاح في انتظار ردّ أحدهم.. تُرَى من الذي تتحرّق لمحادثته هكذا؟! لم ينتظر كثيرًا فأخرج هاتفه من جيب بنطالِه ليتصل بها؛ إذ يفاجأ بأنه هو من تتصل به، وكان هاتفه على وضع الصامت؛ فرد سريعًا: چانو.. ازّيك؟

خفق قلبها لسماعها صوته مدلّلًا إياها بذلك الاسم الذي أطلقه عليها بإحدى مكالماتهما؛ فتطرّقَت إلى الحديث مباشرة بعدما ردت تحيته:

- هشام، أنا عايزَة أخرج.. لا هو ضروري أخرج.

- طب مالِك بس فيه إيه؟

- عايزة أروح عند خالتو.. وماتقلَقْش بجد؛ أحمد هييجي ياخدني، وخالتو أصلًا هنا جنبنا في نفس الحيّ.

رفع حاجبه غيظًا، وهو يراقبها من النافذة، وقال بحنق:

- ده على أساس إن الأستاذ أحمد ده ڤاندام يعني؟!

- ماليش دعوة بقى يا هشام، أنا هطقّ من القاعدة في البيت، وكمان لازم أشوف سارة ضروري.

فرك هشام جبهته، ثم قال:

- خلاص يا ستي.. أنا بنفسي هاجي آخدِك وأودّيكي ليهم.

اجتاحت الفرحة قلبها وغزَت ملامحها بذلك العرض المفاجئ، وقد راق له رؤيته لها بتلك الحالة؛ فقالت من وراء قلبها:

- مفيش داعي أتعبك معايا..

ابتسم قائلًا:

- يلّا اجهزي أنا قريّب منك، عشر دقايق وهكون عندك إن شاء الله.. آه وماتنسيش تقفلي الستارة.

وقعَت عليها الكلمات كالصاعقة، وتبدّلَت ملامحها إلى الارتباك، ابتلعت ماء حلقها بصعوبة وهي تركض إلى النافذة وتمسك بستائرها يقول لسان حالها: "عِرِف ازّاي إن الستاير مفتوحة!".

اتسعت عيناها، وصاحت فجأة:

- يالهوي! يعني شايفني من بدري.. يعني بيراقب البيت من حتّة هنا.. ويا تري شاف إيه وماشافش إيه؟!

أغلقت الستائر دفعة واحدة تتحسّس وجهها الساخن المضرّج بالدماء خجلًا، بينما أطلق هشام العنان لضحكاته المتعالية.

*****

صدق هشام، وما كانت سوى عشر دقائق بالضبط حتى كان ينتظرها تحت منزلها بسيارته، تسمّرَت حدقتاه بمقلتيه ما إن ظهرت أمام ناظريه يتأملها كما لو تلك المرة الأولى التي يرى بها فتاة، لكنه يشعر بإحساسٍ غريب حينما يراها، حينذاك ينسَى أمر قوته ومسئولياته ويطفو ضعفه طالبًا جسدًا، بل قلبًا يضمه بحنان، يطبطِبُ على قلبه حتى يستطيع استعادة قوته من جديد؛ فيعانقها واعدًا بحمايتها، ورسم البسمة على ثغرها ما حييَت.

لم تدم تأمّلاته كثيرًا حتى صدمه ظهور أحمد من خلفها؛ فـلوَى فمه وأُجبر على تحيّته بودّ مصطنع، ركب بجانبه أحمد وركبَت جنة بالمقعد الخلفي، وانطلق كما وصف له أحمد الطريق.

توقّفت السيارة أمام منزل خالتها؛ فنزل هشام يودعها من باب اللياقة؛ فأردف أحمد بتصميم:

- لا على فين يا هشام باشا؟ لازم تدخل تشرب حاجة.
- لا والله مفيش داعي يا أستاذ أحمد..
- لا لا اعذرني.. يعني محدش بييجي بيتنا لأول مرة من غير ما ياخد واجب الضيافة.

قالها وهو يغمز لجنة من خلف هشام معتقدًا أنه لم يره.

فابتسم هشام من جانب فمه، وقال:

-إذا كان كده.. فـدَه شرف ليّا يا أستاذ أحمد.

قال وهو يرمق جنة بطرفه؛ فابتسمَت على استحياء احمرَّت له وجنتاها؛ فرد أحمد:

- مفيش داعي لأستاذ دي بقى.. خلى البساط أحمدي.

ضحك هشام قائلًا:

- تمام يا أحمد.. اتفضلي يا... جنة هانم.

تحلّى وجهها ببسمة تشق الطريق إلى شفتيها ودلفت أمامهما، وما إن دخلوا إلى الردهة الواسعة الملحقَة بالتراس الشاسع بالطابق الأول حتى استقبَلَهُم صراخٌ نابع عن شجار طائل؛ فتمتمَ هشام إلى جنة بينما كان يرقب الموقف:

- شكلنا جينا في وقت مش مناسب.

فانطلقَت جنة تركض حتى وقفت في منتصفيهما صائحة:

- مالك! سارة! انتوا بتعملوا إيه؟ إيه اللى حصل لكل ده؟!

لم يلحظ مالك وجود هشام؛ فصاح بها:

- انتِ إيه اللي جابك هنا؟! أنا مش قولتلك ماتخرجيش من بيتكوا ولو احتاجتينا هنيجي لحد عندك.

وضعت كلتا يديها في جنبيها، وقالت بامتعاض:

- والله؟! لا ما هو واضح إنكوا كنتوا هتيجوا.. وعلى العموم ماتقلَقش؛ حضرة الظابط بنفسه جابني لحد هنا.

انتبه مالك إلى إشارة يدها نحو هشام؛ فتبدّلَت ملامحه إلى الابتسام قليلًا محاولًا استعادة هدوءه، ورحب به:

- سيادة الرائد! أهلًا بيك نورتنا.. آسف بجد أول مرة تيجي عندنا وتلاقي...

قاطعه هشام نافيًا:

- لا لا أبدًا.. مفيش حاجة.

ثم تأبّطَه هشام بعيدًا عن سارة؛ ليجلسا بعيدًا عن الجمع بشيء من الصداقة، واسترسل ملطفًا الأجواء:

- اهدا انتَ بس.. مفيش حاجة مستاهلة، همّا كل الستات كده وهتحرق أعصابك على الفاضي.. همّا بيتفننوا في ده، ماتديهاش انتَ الفرصة.

قالها هشام متأملًا ملامح وجهه التي بدأت تلين قليلًا، وقد لاح عليها التأنيب فقال:

- مش بالظبط يعني.. يعني هي سارة غلبانة و.. طيبة، بس مش عارف بتتعصّب ليه بسرعة اليومين دول؟ إيه يعني لما أطلب منها شوية حاجات، ما أي زوج بيعمل كده.

فرد هشام بينما تطلق عيناه سهام اللوم:

- يا مالك الستات فعلًا بتتعب، شغل البيت واهتمامها بيك مش حاجة هيّنة، مافيهاش حاجة لما تخفّف انتَ عنها شوية، يعني لو محتاج كوباية مياه أو شاي مفيش مانع لو انتَ جبتهم لنفسك، والحاجات البسيطة اللي احنا الرجالة بنطلبها عمّال على بطال لو عملتها مش هتتعب انتَ في حاجة، وهتخفف عنها كتير، وبالتالي تعرف هي تفوق لك وتدلعك، وساعتها لو طلَبْت عنيها مش هتقولك لأ، بالعكس.. هيبقى نفسها تفرّحك بأى شكل.

أشاح مالك بناظريه إلى الأعلى بتفكير، ثم ضحك وقال له:

- تصدق عندك حق.. هطبّق كلامك أما نشووف، بس شكلك خبرة.
- عايش مع ستّتِين في البيت بياكلوا دماغي لما بعمل الحركات دي.

- إيه ده؟! انتَ متجوّز اتنين!

ضحك هشام ملأ فمه وقال:

- لا يا جدع انت فهمت إيه! أنا بتكلم على مامـ.. مرات بابا وأختي.

- آآه.

استمر الحديث بينهما وكأنهما أصدقاء زمن طويل، بينما أخذ أحمد وجنة سارة إلى الداخل، وبالتحديد إلى المطبخ؛ حيث هتفت جنة بعتاب صريح:

- فيه إيه يا سارة مالِك؟ أول مرة تبقِي عصبية كده، ما انتِ عارفة مالِك وطبعُه، وعلى طول بتعرفي تتحكمي في عصبيته وغضبه.

صاحت سارة:

- يا سلام! طب وبعد ده كله بقى مش من حقي لمرة واحدة أفقد أعصابي؟! كل إنسان ليه طاقة، وأنا مش جماد يعني.

- عارفة يا حبيبتي، بس انتِ كده لما بتتعصبي وتقلبي الرجل الأخضر فجأة ده هيسيب عنده انطباع وحش عنك هينسّيه كل الحلو اللي بتعمليه، وكمان هتفقدي حقّك، وفجأة هيقلب عليكي انتِ الترابيزة وتطلعي انتِ الغلطانة.

وافقها أحمد هاتفًا بينما كان يأكل شريحة من التفاح:

- بالظبط، وده اللي بحاول أفهمه لها.. احنا أساتذة في قلب الترابيزة، وهيطلّعِك غلطانة لحد ما هتصدقي إنك فعلًا الغلطانة وتعتذريله كمان.. اسأليني أنا.

قالها متلاعبًا بحاجبيه؛ فزمَّت سارة فمها بغضب، وصرخت به تهدده بالسكين:

- طب اخرج انتَ كمان من هنا بدل ما أرتكب جناية.

ابتعد خارجًا من المطبخ يقول بهزَر:

- شوف يا أخي البني آدم.. ياااه! يعني خيرًا تعمل شرًا تعمل برضُه.

ضحكَت جنة، بينما كانت عينا سارة تطلق شررًا؛ فاعتدلت جنة وحمحمت قائلة:

- خلاص بقى يا سوو، بنحاول نفرفشك أهو، وأنا جايّة مخصوص عشانك.

- وانتِ عرفتي منين صحيح؟

- أحمد كلّمني وقالّي، وحضرة الظابط تكرّم وجابني لحد هنا.

- آه صحيح.. هو ازّاي جِه معاكوا.

- كلمته أعرّفه إن أحمد هيجيبني، ومارضيش غير إنه ييجي يوصّلني بنفسه.

نكزتها سارة بلؤم:

- يا بت.. هييح أيوَه فعلًا الاهتمام مابيطّلِبْش.. ببيجي لوحده مع حضرة الظابط، مش المهندسين اللي بنتجوّزهم و...

صمتَت فجأة ووضعت يدها على فمها راكضة إلى الحمام تتقيأ؛ فركضت جنّة من خلفها تطرق الباب بقلق:

- سارة! سارة انتِ كويسة؟

خرجت سارة بعد دقائق مصفرّة الوجه تترنح وتتأوه بوهن؛ فسألتها جنة عما بها؛ فأجابتها:

- مش عارفة! بقالي يومين معدتي وجعاني، شكلي أخدت دور برد.

ابتسمت جنة بخبث وهمهمت:

- امم.. دور برد.

تغضَّن جبين سارة، لم تفطَن إلى ما ترمي إليه جنة؛ فأردفت:

- طب يلّا ياختي خُدي انتِ العصاير والفاكهة طلّعيها لحضرة الظابط، الراجل أول مرة ضيف في بيتنا يقول علينا إيه؟! بخلا! وأنا هعمل حاجة سخنة أشربها.

وافقتها جنة وأخذت سلة الفاكهة وخرجت بها إلى حيث يجلس الشباب، وتسلّل إلى أذنها سؤال مالك لهشام:

- ما قولتليش بقى يا هشام، انت خاطب؟

لا تدري هل توقف قلبها لحظة سماعها ذلك السؤال أم ما زال ينبض، تسمّرَت مكانها يتلهّف قلبها لمعرفة تلك الإجابة التي هو ربما لا يريد سماعها؛ ستكون مصقَلة إعدامه.

ارتبك هشام، لكنه أخفى ذلك بجدارة، ولاحظ وجود جنة بطرف خفيّ؛ فابتسم وردّ بملء فمه:

- لا.. لسه.

ثم نظر إلى جنة وقال:

- بس لو عندك عروسة حلوة وزي القمر ماعنديش مانع.

ابتسمت وارتاح قلبها، لكن قامت ثورته التي لا تهدأ في حضرته، واندفعت دماء الحياء إلى وجهها لتزينه بحمرته، ثم وضعت أمامهم الفاكهة ودلفت إلى المطبخ، وما إن توارت عن أنظارهم أخذت تضحك وتضحك، تضع يديها على وجهها تارة وعلى قلبها الخفاق تارة أخرى، ثم دلفَت إلى المطبخ لتجد سارة قد أعدّت مشروبها، وكادت تلقي بأول رشفة منه بفمها حتى أوقفتها جنة صائحة وأخذت منها الكوب:

- يخرب بيتك بتعملي إيه؟

- إيه يا مجنونة فيه إيه؟ بشرب قرفة بالجنزبيل عشان معدتي تهدا.

- لا، ده انتِ طلعتي غبية رسمي!

حدّقت بها سارة ببلاهة تنتظر توضيحًا؛ فعادت جنة بناظريها إليها:

- صبرني يا رب! يا هانم واحدة دايخة وعصبية ونفسها بتغمّ عليها كل شوية، ممكن أعرف دي أعراض إيه؟

تفكّرت سارة قليلًا، ثم شهقت وقالت:

- إيه يا بنتي اللي بتقوليه ده؟! لا يا شيخة مش معقول.

- هو إيه ده يا بت اللي مش معقول! انتِ مش متجوزة من ٣ شهور.

- أيوَه بس برضه لا.. لا يا ستي لا.

أمسكت جنة بمرفقها، وقالت بخفوت:

- هو إيه ده يا بتّ اللي لأ؟! انتوا.. يعني انتي ومالك...

ضربتها سارة بخجل قائلة:

- بطّلي قلة أدب.. هو.. لأ.. مستحيل يعني.

- لأ ده أنا كده أنادي له بقى ييجي يشوف مراته بتقول عليه إيه، ونفهم حوار لأ ومستحيل ده.

- خدي هنا رايحة فين؟ انتِ هتقوّليني كلام ماقولتوش، غاية ما هناك إني مش مستوعبة يعني احنا متجوزين من وقت قصير.. هو.. هو ممكن يكون بجد؟

تساءَلَت وقد التمع بريق بعينيها؛ فردت جنة بابتسامة تداعب وجنتَي صديقتها:

- آه ممكن جدًا، أنا أعرف ستات بيحمَلُوا في أول شهر جواز عادي يعني، بصي انتِ جيبي النهاردة اختبار حمل من الصيدلية واتأكّدي.

- طب وأنا هطلع ازّاي؟ ما أنا لو قُلت هجيب حاجة من الصيدلية هيقولّي يروح هو، وأنا مش عايزة حد يعرف من غير ما أتأكد.

- امم.. خلاص سيبيها عليّا، عندي فكرة.